المحاضرة السادسة :

عوامل الاستقطاب ودور العلماء المغاربة وتاثيرهم الثقافي في ازدهار الحركة الفكرية بالمشرق الإسلامي

عوامل الجذب والاستقطاب:

الواقع أن الدارس للساحة المشرقية يقف على جملة من المعطيات السياسية و الدينية والاقتصادية و الثقافية شكلت بدورها عامل جذب و استقطاب لكثير من طلبة العلم من المغرب الإسلامي الذي عانى من ويلات الانقسام و الحروب والاضطهاد المذهبي،الذي أفرز نتائج سلبية للغاية أضرت بشريحة عريضة من المجتمع لم تستطع التأقلم مع التطورات الحاصلة، لذا لم يتردد بعضهم للهجرة باتجاه مختلف حواضر المشرق الإسلامي، حيث أصبحت الظروف السياسية أكثر انسجاما بعد زوال حكم الفاطميين في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، ونجاح نور الدين الزنكي (ت 569ه/1114م) في إعادة اللحمة ورأب الصدع بين المدن الشامية التي عانت من الفرقة والتشتت ردحا من الزمن، كما تمكن في الوقت نفسه من ضمان ولاء المصريين له عن طريق أنصاره من الأيوبيين (569-650ه/1114-1252م) ومن هذا المنظور يمكن القول بأن نور الدين الزنكي (ت 569ه/1114م) وجد ضالته في الوافدين المغاربة لاسيما على صعيد الأفكار المذهبية لما كان يتطلع إليه في مشروعه الوحدوي منها:

- الوقوف في وجه المذهب الإسماعيلي الذي تجذر في البلاد الشامية و المصرية إبان حكم الفاطميين (362-567ه/973-1171م).
- الترويج للثقافة السنية.
- الوقوف في وجه الخطر الخارجي الذي بات يهدد الدولة لاسيما بعد سقوط بغداد في يد المغول سنة 656ه/1258م والتصدي لعدوان الفرنجة المتواصل على الساحل المتوسطي.

كما يمكن أن نتحسس أهمية الدور الذي قام به من خلال التسهيلات التي كان يقدمها للمغاربة، إذ لم يتوان في الإحسان إليهم وإحاطتهم بكل معاني التكريم والتبجيل، وحسب شهادة ابن جبير الذي يؤكد على هذا العطاء بقوله: « و من مناقب نور الدين رحمه الله تعالى أنه كان عينا للمغاربة الغرباء».

ولعل استقرار الأوضاع السياسية و تحسن ظروف المعيشة و النهضة العلمية التي لاحت ملامحها في البلاد الشامية، دفعت بابن جبير الذي دخل البلاد ما بين (581- 583ه/1185- 1187م) إلى دعوة أهل المغرب بالرحيل إليها فقال :« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد فيتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات الكثيرة منها فراغ البال من أمر المعيشة و هو أكبر الأعوان و أهمها، فإن كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد و لا عذر لمقصر».

فربما كانت هذه الدعوة محفزا آخر للهجرة، فاتجه عدد كبير من المغاربة عامة والزواويين على وجه الخصوص إلى مختلف الحواضر المشرقية، ويستفاد من كتب التراجم والطبقات في الفترة موضوع البحث أن عدد المغاربة الذين فضلوا الاستقرار فقط دون حساب عائلاتهم أو الذين عادوا إلى وطنهم تجاوز خمسمائة من المغاربة

أما على الصعيد الاقتصادي فأرض الشام عامة وحسب ما أطلعتنا عليه كتب الرحلة تكتنز ثروات زراعية هامة مما سهل سبيل الحياة بها، فكل من وفقه الله بهذه الجهات من الغرباء للإنفراد يلتزم إن أحب ضيعة من الضياع فيكون فيها طيب العيش ناعم البال، و ينهال الخير عليه من أهل الضيعة، و يلتزم الإمامة أو التعليم أو ما شاء و متى سئم المقام خرج إلى ضيعة أخرى حسب رواية ابن جبير، ناهيك عن حسن معاملة الشاميين للغرباء إلى جانب ما فطر عليه المغاربة من تواضع، الأمر الذي عزز من أواصر الأخوة بينهما و دعمها،غير أن ما استقبلته مصر لا يقل أبدا عن ما احتضنته بلاد الشام من العلماء المغاربةوذلك رغم الصورة القاتمة التي رسمها ابن سعيد حول مصر، لاسيما بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الأيوبيةالتي ضمت إلى جانب مصر، بلاد الشام والحجاز، وقد درج صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة سيرة سلفه نور الدين الزنكي في إكرام الوافدين من العلماء المغاربة والاهتمام بهم، ومرد هذا الاهتمام بتقديري ليس فقط من أجل الاستعانة بهم في تسيير شؤون دولته على اعتبار الكفاءة العلمية التي تميز بها المغاربة كما استنتجت ذلك إحدى الباحثات، وإنما لأجل حاجته إليهم في محاربة المذهب الشيعي الذي تجذر في المجتمع المصري بدليل دور العلم التي أوقفها للمالكية، ليضمن بذلك ولاءهم الروحي والسياسي،ولأجل هذا الطموح أيضا أمر بمحو وإلغاء كل الرسوم و المكوس المفروضة على الحجيج إلى بيت الله الحرام، التي أثقلت كاهلهم و زادت من متاعبهم المادية لطول

السفروحسبنا دليلا على ذلك أنه راسل في هذا الأمر مكثر بن عيسى أمير مكة،يأمره برفع تلك المغارم.

أما أرض الحجاز فعلى الرغم من قداستها و مكانتها الدينية، إلا أن عدد المغاربة بها يبدو قليلا إذا ما قورن ببلاد الشام، و مصر، إذ اقتصر الأمر على فرق الصوفية المجاورين.

وقد يفسر قلة عدد المغاربة في أرض الحجاز إلى جملة من المعطيات منها:

أ- قلة الموارد الطبيعية.

ب- قساوة المناخ بفعل بيئتها الصحراوية.

جـ- قلة فرص العمل.

و قصارى القول فقد لعبت العوامل الاقتصادية دورا حاسما في تحديد وجهة العلماء المغاربة الذين اختار أغلبهم بلاد الشام لتوفر فرص العمل و عاملي الأمن و الاستقرار و رخص المعيشة، إلى جانب طبيعة الدمشقيين في إكرام الغرباء من علماء و طلبة على حد سواء.

الأسباب الثقافية:

سعى نور الدين الزنكي (ت 569هـ/1174م) و من بعهده الأيوبيين (567-648هـ/1171-1250م) و المماليك (648-784هـ/1250-1382م) إلى انتهاج سياسة تعليمية تقوم على محاربة المذهب الشيعي، و إحياء علوم السنة التي - توقفت في عهد الفاطميين- لاسيما و أنها وجدت كل مظاهر الدعم و المساندة من قبل العلماء الذين أشادت المصادر التاريخية بدورهم الفعال في إيجاد صيغة توفيقية بين اللاهوت السني وعلم المنطق واعتماد المنهج العقلي الذي أرسى قواعدها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ/1112م).

ولأجل هذا الغرض شيدت المساجد و الزوايا و الخوانقو الربطو دور القرآن و الحديث والمدارس، التي شكلت بدورها عامل استقطاب للعديد من العلماء و الصوفية المغاربة الذين توزعوا بين بلاد الشام و مصر و الحجاز.

ومع ذلك لا يجب أن يفهم بأن كل هذه المؤسسات كانت تهدف فقط لمحاربة الرافضة، و إنما كان للوازع الديني دوره في نشر العلم و تثقيف المجتمع، فلقد حث الإسلام على ضرورة تحصيل العلوم و اكتساب المعارف، لفهم الأحكام الشرعية وبما ينفعهم في دينهم ودنياهم على حد تعبير أحد الفقهاء.

لذا حرص الملوك و الأمراء و وجوه القادة الأثرياء في بناء دور العلم لما يأملونه من عظيم الأجر و الجزاء عند الله عز و جل.

والجدير بالملاحظة هو قلة دور العلم الخاصة بالمغاربة المالكية مقارنة بنظيرتها الشافعية و الحنبلية و الحنفية، إلا أن المذهب المالكي نال حظه من الاهتمام فقد أوقف نور الدين الزنكي (ت 569هـ/1174م) زاوية بالمسجد الأموي للمغاربة، وأوقف عليها أوقافا كثيرة منها (طاحونتان) و حمام و دكانان، و سبعة بساتين و أرض بيضاء تغل وحدها خمسمائة دينار في العام، هذا إلى جانب ديارا أخرى لحفاظ كتاب اللهكما احتوت هذه الزاوية في إحدى جنباتها خانقة للصوفية يعيشون فيها حياة الملوك على حد تعبير ابن جبير.بعد أن كفاهم نور الدين الزنكي مؤن العيش و شضف الحياة.

و اقتفى صلاح الدين الأيوبي (ت 589هـ/1193م) سيرة سلفه نور الدين في العناية بالمغاربة بأن أوقف لهم مدرسة أمها العديد من العلماء المغاربة و الأندلسيين

ولعل ما يسترعي الانتباه أن النظام الداخلي لهذه المؤسسات يوصي بضرورة القيام والانفاق عليها سواء من الأموال العامة أو الخاصة، و هو ما أكده ابن جبير قوله :" أن كل مسجد يستحدث بناءه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها السلطان أوقافا تقوم بها و بساكنيها و الملتزمين بها".

و الملفت أيضا أن كل دور العلم التي أوقفت على المالكية سواء كان ذلك في عهد نور الدين أو سميه صلاح الدين و حتى في عهد المماليك، تداول على التدريس بها علماء مغاربة منها على وجه الخصوص المدرسة الشرابشيةوالصمصامية.

وفيما يبدو أن كثرة الجالية المغربية بالقدس الشريف دفعت بالأيوبيين (567-648ه/1171-1250م) و من بعدهم المماليك (648-784ه/1250-1352م) إلى وقف العديد من المؤسسات الدينية و الثقافية على هذه الفئة، إذ تذكر المصادر التاريخية في هذا الباب بأنه كان بمدينة القدس وحدها ستون مؤسسة ما بين مدرسة و زاوية و خانقاهتردد عليها لفيف من الطلبة المغاربة في شتى حقول المعرفة.

كما أوقف صلاح الدين خانقاه لشيوخ الصوفية المجاورين للمسجد الأقصو اقتفى الملك الأفضل نور الدين سيرة أبيه صلاح الدين في الاعتناء بالمغاربة، و بنى لهم مدرسة و أسكنهم بجوار الأقصى في سكنات خصصها لهم حتى عرفت باسمهم حارة المغاربة، و تنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات في القدس الشريف للقادمين و الضاعنين و القاطنين

واقتدى المماليك سيرتهم في تقريب العلماء و الاهتمام بالغرباء و إحاطتهم بكل معاني التكريم و التبجيل، و من القرائن الدالة على ذلك أن الأمير تنكز الناصري نائب الشام بنى مدرسة و أوقفها على المالكية سنة (729ه/1328م)، وحسبنا أيضا ما أخبر به خالد البلوي أنه وقف على مسجد بالقدس كان مخصصا فقط للمغاربة المالكية.

وتفيد المصادر والمراجع التاريخية أنه توفر لبلاد الشام عدد كبير من الأوقاف العلمية (مدارس و خوانق و زوايا و ربط ودور القرآن والحديث والمساجد) قاربت نحو ثلاثمائة مكان أي ثلاث أرباع المدارس المشرقية كما استنتج ذلك أحد الباحثين،فشكلت بذلك عامل جذب و استقطاب للعلماء والطلاب المغاربة لاسيما وأنهم وجدوا بها كل مظاهر التكريم من قبل السلاطين والأمراء وحسن المعاشرة من الأهالي، الأمر الذي دفع بهم إلى الاستقرار في هذا القطر من العالم الإسلامي.

أما في مصر فلم تمض مدة طويلة على توليته الوزارة حتى قام صلاح الدين الأيوبي بفتح المدارس السنية لمحاربة المذهب الإسماعيليمنها الناصرية والصلاحية لأتباع المذهب الشافعي والقمحية

للمالكيةواليوسفية للحنفية، كما حول دار الغزل مدرسة للمالكية، و لم يمنعه واجبه العسكري، في مقارعة الأعداء من الاهتمام بالعلم و أهلهو حول الملك الصالح نجم الدين جزءا من القصر الفاطمي إلى مدرسة كبيرة عرفت بالصالحية و جعلها ذات أربعة أواوين لكل مذهب إيوان،كما تنافس الأمراء و الملوك و ميسوري الحال في بناء المدارس و رتبوا لها أرزاقا جمة من الأوقاف على وجوه البر.

و من القرائن أيضا أن القاضي الفاضل (ت 596ه/1192م) قام ببناء مدرسة بالقاهرة لتدريس المذهبين المالكي و الشافعي و أوقف عليها الأوقاف الكثيرة و كون بها مكتبة ضخمة احتوت على حوالي

مئة ألف مجلد هذا عدا دار الحديث التي عرفت بالفاضلية و مكتبا للأيتام، و قد بلغ عدد دور الحديث في القاهرة وحدها عصرئذ نحو ثلاثة و سبعون مدرسة.

كما أن السلطان أبو الفتح لاجين الملقب بالمنصور أعاد ترميم مسجد ابن طولون و أنفق عليه الأموال الطائلة، ورتب فيه ثلاثون نفسا يتفقهون على مذهب الإمام مالك وشيخا يتفقهون عليه و مثلهم على باقي المذاهب الأخرى، بالإضافة إلى طائفة من القراء يلقنون الصبيان و الأيتام و أجرى لهم أرزاقا جمة.

وللغاية نفسها أظهر اعتناءه بالحجيج، حين أمر بإسقاط كل ما كان يؤخذ منهم في جميع البلاد من الضرائب و المكوس، و أنفذ في ذلك كتبا إلى عماله و ولاته قرئت على منابر المساجد،و غدت مصر على عهد الأيوبيين و المماليك منارة للعلم و مقصد للطلاب من كل أنحاء العالم الإسلامي، و تقوم شهادة ابن خلدون دليلا قاطعا على ما وصلت إليه مصر من رقي و تطور حضاري إذ يقول عنها "و نحن لهذا العهد نرى أن العلم و التعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، كما أن عمرانها مستبحر و حضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع و تفننت، و من جملتها تعليم العلم و آكد ذلك فيها و حفظه ما وقع بهذه العصور بها منذ مائتين من السنين من بناء المدارس و الزوايا و الربط و وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة... و عظمت العائدات و الفوائد، و كثر طالب العلم و معلمه بكثرة جراياتهم منها و ارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق و المغرب و نفقت بها أسواق العلوم و زخرت تجارتها".

ولقي الطلبة المغاربة بها كل التسهيلات و المساعدات شجعتهم على البقاء لأخذ العلم و الإطلاع على أمهات الكتب و مجالسة الشيوخ و الفقهاء ممن ازدانت بهم حلقات الدرس، و أطبقت شهرتهم الآفاق أمثال العلامة ابن دقيق العيد (ت 667ه/1267م) والعز بن عبد السلام و الحافظ الشرف المرسي.

وقد نال عدد كبير من العلماء المغاربة حظهم الوافر من التعليم، بل أن منهم من أصبح أستاذا يؤخذ عنه كابن معطي الزواوي شيخ العربية و النحو في مصر كلها عصرئذ،

ودون أن نضاعف من عدد الأمثلة التي تشيد بما وصلت إليه مصر من مظاهر الرقي العلمي والتطور العمراني والثقافي، يكفي أن نشير إلى ما ذكره التجيبي (ت730ه/1330م) في مستفاد رحلته قوله:« وبهذه المدينة روضات الملوك العظيمة البناء البديعة الشكل كتربة الملك الأجل نجم الدين أيوب الملقب بالملك الصالح (توفي نهاية القرن السابع)، ولكل تربة منها قومه وقراء يتلون فيها كتاب الله، ولهم على ذلك أرزاق نفع الله واقفيها فطالب العلم في هذه المدينة وكذلك حافظ القرآن العظيم وإن لم يكن لديه طلب معاش محفوظ الجانب، ولأهل هذه البلاد في الاعتناء والأوقاف على وجوه البر عادة جميلة وشرف دائم وفخر مستمر، وأمر هذه المدارس والخانقاه للصوفية وروضات الأكابر في ازدياد، وبهذه القاعدة العلمية أيضا مارستان عظيم القدر، شهير الذكر، للمرضى وذوي العاهات ابتناه الملك الأجل

قلاوون (ت689هـ/1289م)،ورتب فيه الأطباء والخراج ومن يعالج المرضى ويتفقد أحوالهم بكرة وعشية، وجعل فيها من عقاقير الهند كثيرا مما لا يكاد يوجد إلا في خزائن الملوك وذخائرهم، وفيه من الكسي والأغذية ما يناسب ذلك».

ويتضح من حصاد ما سبق أن مصر، ومنذ أن أصبحت العاصمة السياسية للدولة، تحولت إلى قبلة لأهل العلم و مريديه في ظل جهود السلاطين المتعاقبين على الحكم، و أهل البر في توفير مستلزمات هذه النهضة العلمية من مدارس و ربط و زوايا، ما وقفوا عليها الأوقاف الكثير و اختاروا لها جلة العلماء و أجروا عليهم و على طلبتهم الأرزاق و اهتموا بالوافدين، و وفروا لهم ما يحتاجونه من مساكن و أموال ليتفرغوا لأداء رسالتهم على أكمل وجه.

أما عن أوقاف أرض الحجاز فعلى الرغم من قلتها بالمقارنة مع مصر و بلاد الشام، إلا أن الحياة العلمية بها نشطت على نحو بالغ خاصة في العهد الأيوبي، و ذلك لتوافد عدد كبير من العلماء الذين عملوا على تغذية حلقات الدرس التي كانت تعقد يوميا بالحرم المكي، ونظرا لكثرة الوافدين من طلبة العلم المجاورين لأرض الحرمين، اجتهد عدد من أهل الخير و الصلاح في بناء الأربطة و وقفها على الغرباء الذين آثروا البقاء بجوار بيت الله الحرام، وذلك تأسيا بالناصر صلاح الدين الذي ثبت قاعدة الخدام في الحرم النبوي، يقومون على خدمة حجاج بيت الله الحرام.

و تقدم لنا المصادر التاريخية لائحة بأسماء الأوقاف من أربطة، و مدارس، نذكر من بينها

رباط الخيزران، البخارية، الدمشقية، موفق، ربيع، والتميمي.

ولقد أدت حلقات العلم و المسجد الحرام دورها في تنشيط الحياة العلمية و الثقافية في بلاد الحجاز زعامة، إذ لم تكن هذه الأخيرة تقتصر على الدروس فحسب بل كان يتم فيها مناظرة العلماء من المجاورين و الوافدين عليهم، و فضلا عن ذلك فإن مجالس بعض الأمراء تحولت إلى دار ندوات لكبار العلماء و الفقهاء.

و نستنتج من حصاد ما سبق أن كل الأوقاف التعليمية من زوايا ربط و مدارس سواء كان في بلاد الشام و مصر أو الحجاز، كان لها أبعد الأثر في استقطاب عددا كبيرا من العلماء المغاربة وساهمت في تعزيز أواصر الوحدة وتوثيق السند العلمي بين الطلاب وشيوخهم، كما تجلت في صورة الحجيج المغاربة إلى مكة والمدينة والتي ازدادت أعدادا مع مرور الزمن رغم بعد المسافة و انعدام الأمن، إذ بعد أداء فريضة الحج كانوا يحتكون بمشاهير العلماء في مختلف الحواضر العلمية حتى إذا ما طاب لهم المقام فيها و جذبهم إشعاعها العلمي أَبَوْ إلا أن يجعلونها دار مقام و استقرار ، ومن الأمثلة على ذلك أن عددا من أسر المغاربة التي كانت تسكن حارة المغاربة بجوار مقبرة باب الصغير تقيم اليوم بحي اليرموكوقد أسهم أفرادها بجهد

وافر في نهضة دمشق، وبرز دورهم أكثر في العلوم النقلية، كالقراءات والحديث والدراسات الفقهية وعلوم اللغة أو في بعض الوظائف السامية كالقضاء.

وفضلا عن الصلات العلمية وما نتج عنها من تلاقح فكري وثقافي بين علماء ونظرائهم من المشرق، أكدت مصادر الفترة موضوع البحث الترابط الروحي بين مختلف الطرق الصوفية المشرقية والمغربية، فقد أمدنا ابن الزيات في كتابه "التشوف" بعدد من الأعلام المشارقة الذين زاروا بلاد المغرب رغبة في توثيق السند وتأصيل الطريقة، مما يعطي الدليل على أن المد الوحدوي تأطر في وعاء الإسلام